

الكاتب: د/ خير عزيز

جامعة مولود معمري - تيزي وزو - الجزائر

البريد الإلكتروني: azizkhiterteo@gmail.com

تاريخ الإرسال: 2019/02/04 تاريخ القبول: 2019/05/19 تاريخ النشر: 2019/09/30

نشأة الظاهرة النقابية العمالية في العالم : المخاض العسير.

.The emergence of the trade union phenomenon in the world: difficult labor

الملخص بالعربية:

إن الظاهرة النقابية العمالية في العالم قد ظهرت لأول مرة في القارة الأوروبية التي شهدت أولى التحركات العمالية التي شكلت المخاض الذي أدى إلى ميلاد النقابة العمالية ، و يمكن القول بأن ارتباط نشأة الظاهرة النقابية العمالية في العالم بهذه القارة جاء كنتيجة طبيعية و حتمية لارتباط هذه الظاهرة بتلك التحولات العميقة التي عرفتها أوروبا منذ منتصف القرن 14 م ، و نتيجة تفاعل تلك التحولات التي ألقت بظلالها على الحياة العامة للشعوب الأوروبية و لا سيما الطبقة العاملة التي تغيرت و تطورت ذهنيته بعدما أحدثت القطيعة مع كل ما يرمز للعصور المظلمة التي عانت منها كثيرا.

أما ميلاد هذه الظاهرة النقابية العمالية خارج أوروبا و بالتحديد في مستعمراتها لاسيما في قارة إفريقيا فقد ارتبط بعاملين أساسيين هما التجربة أو المثال العملي الذي حملته النقابيون الأوروبيون بعد تأسيسهم لفروع نقابية تابعة للمركزيات في أوروبا و التي كانت مدارس نقابية تكون فيها قادة النقابات الوطنية في المستعمرات ، أما الثاني فيتمثل في حالة البؤس و الاضطهاد ... الذي كانت تعاني منه الطبقة العمالية المحلية و التي كانت تدفع بقوة لضرورة تغيير تنظيمها بالشكل الذي يسمح بالاستفادة من قوتها و حراكها في النضال الوطني .

الكلمات المفتاحية: النقابة العمالية - الطبقة العاملة - الرأسمالية - الحراك النقابي - الثورة الصناعية - ساعات العمل - حقوق العمال - الوعي الطبقي.

Abstract :

The link between the emergence of trade unionism in the world and the European continent was a natural and inevitable consequence of the association of this phenomenon with the profound transformations that Europe has known since the middle of the 14th century. These transformations have cast a shadow over the

public life of European peoples and especially the working class. You know their rights and how to get them.

The birth of this trade union phenomenon outside Europe and specifically in its colonies, especially in the continent of Africa, has been linked to two main factors: the European union branches, which were trade union schools where the leaders of the national trade unions in the colonies, the second is in the case of misery and persecution ... It suffered from the local working class, which was strongly pushing for the need to change its position in a way that allows to benefit from its strength and mobility in the national struggle.

Keywords: Labor union - working class - capitalism - industrial revolution - working hours - workers' rights - Britain - France - Afric .

مقدمة:

جذور الظاهرة النقابية كتنظيم و جهاز عمل اعتمد عليه العمال و الحرفيين في نضالهم من أجل تحصيل حقوقهم و الدفاع عن مصالحهم هي أقدم في الظهور منها كمصطلح ، غير أنها لم تتبلور بشكل منظم و مهيكل إلا في العصور الحديثة و المعاصرة ، كما أن النقابة كحركة عمالية لا تعتبر حديثة مقارنة فقط بالعديد من الحركات الاجتماعية و الاقتصادية ... الكبرى في العالم ، و إنما حتى بالنسبة لبعض النقابات الأخرى .

هناك إجماع بين المؤرخين على أن الظاهرة النقابية العمالية في العالم قد ظهرت لأول مرة في القارة الأوروبية التي شهدت أولى التحركات العمالية التي شكلت المخاض الذي أدى إلى ميلاد النقابة العمالية ، و يمكن القول بأن ارتباط نشأة الظاهرة النقابية العمالية في العالم بهذه القارة جاء كنتيجة طبيعية و حتمية لارتباط هذه الظاهرة بتلك التحولات العميقة التي عرفت أوروبا منذ منتصف القرن 14 م¹ ، و نتيجة تفاعل تلك التحولات التي ألفت بظلالها على الحياة العامة

للشعوب الأوروبية التي تغيرت و تطورت ذهنيتهما بعدما أحدثت القطيعة مع كل ما يرمز للعصور المظلمة .

إننا هنا لا نحاول تفسير سبب ارتباط نشأة الظاهرة النقابية العمالية بحيزها المكاني أو مجالها الجغرافي بقدر ما نسعى إلى محاولة تفسير السياق التاريخي و تطوراتها التي أفضت إلى ميلاد هذه الظاهرة التي تدخل في إطار ذلك الزخم الذي أفرزته التحولات الكبرى التي شهدتها القارة الأوروبية .

1- ارتباط الظاهرة النقابية العمالية بنشأة الطبقات في المجتمع :

تذهب معظم الكتابات التاريخية إلى ربط نشوء هذه الظاهرة بالثورة الصناعية التي قامت في أوروبا مع نهاية القرن 18م بانجلترا ، و يعتبر هذا صحيحا بالنسبة للنقابات العمالية لكن تجدر الإشارة فقط إلى أن النقابة كظاهرة أو ممارسة هي أقدم من الثورة الصناعية باعتبار أن التجار و الحرفيين قد أنشؤوا من قبل ما يعرف "بالطوائف" أو "النقابات الطائفية"² .

قد يتسأل البعض عن سبب عرض هذه الفكرة عن نقابات التجار التي هي ليست مثل نقابات العمال التي نحاول التأريخ لنشأتها ، ذلك أن الهدف من هذا هو الإشارة إلى أن النقابة التي أسسها العمال بعد قيام الثورة الصناعية كانت لها نماذج حاز التجار شرف سبق إنشائها ، بمعنى آخر و من دون التقليل من شأن الانجاز الذي حققه العمال بإنشاء نقابات عمالية خاصة بهم إلا أنه لم يكن إبداعا و لا اكتشافا لشيء جديد ، بقدر ما كان تطوير أو انفراد بتنظيم نقابي مستلهم من تجارب سابقة ناجحة خاضها التجار و الحرفيين من قبل .

يربط كثير من المؤرخين ظهور النقابات العمالية بنشأة "الطبقات" في المجتمع ، و هذه الأخيرة هي نتاج الأحداث و التطورات التي أفرزتها الثورة الصناعية التي أوجدت الظروف الموضوعية لنشأة النقابة العمالية³ ، الأمر الذي يجعل البحث عن أسباب تأخر ظهور هذا النوع من النقابات إلى غاية قيام الثورة الصناعية يقود بالضرورة إلى البحث أولا عن أسباب تأخر ظهور الطبقة العاملة .

إن المعنى الدقيق لتأخر ظهور الطبقة العاملة المقصود به هو غياب طبقة عمالية قوية قادرة على تنظيم نفسها واعية بمشاكلها و مدركة لوضعها و واقعها في الحياة لاسيما العملية و الاجتماعية ، ذلك أن العمال كشريحة اجتماعية كانت موجودة قبل هذه الثورة⁴ لكنها تميزت بسمات جعلتها لا تبرز بشكل واضح كقوة متجانسة مؤثرة و لها وزنها في المجتمع ، و من أهم هذه السمات التي حجمت من أهمية هذه الطبقة قبل الثورة الصناعية بالإضافة إلى ضعف عدد العمال ، هو أنهم لم يكونوا يملكون خصائص اجتماعية و سيكولوجية مشتركة تجعلهم يشعرون بالانتماء إلى طبقة متميزة عن غيرها من الطبقات ، و هو ما يعبر عنه في الأدبيات الماركسية "بنقص الوعي الطبقي" عند العمال باعتبار أن نمط الحياة و النشاط أو النظام الاقتصادي و علاقات العمل التي كانت مرتبطة بهذا النظام لم تكن لتهيأ ظروف ميلاد هذا الوعي ، خاصة بشكله النضالي الذي ظهر عليه في القرنين 19 و 20 م .

لقد كانت تتكون طبقات مجتمع ما قبل الثورة الصناعية من طبقة النبلاء و الاكليروس الذين كانوا يمثلون الملاك أو أرباب العمل ، في حين طبقة العامة (الكادحين) كانت تتكون في معظمها من الفلاحين الذين كانوا يعملون في مزارع الطبقة الأولى ، و لقد كانت طبيعة الحياة المهنية في هذه الفترة أن جعلت هؤلاء الفلاحين لا يتطلعون لإقامة تنظيم يجمعهم و يحميهم من بطش و استغلال النظام الاقتصادي (الإقطاع) الذي فرضه النبلاء و رجال الدين عليهم ، و الذي أمعن في قتل روح التضامن بين العمال بالشكل الذي أفقدهم استشعار أهمية إقامة مثل هذا التنظيم ، أو على الأقل مجارة التنظيم الذي أقامه التجار و الاستفادة منه بعدما حال الإقطاعيون دون احتكاك هؤلاء الفلاحين بالتجار بحكم قيود العبودية التي كانت مفروضة عليهم .

إن هذا الوضع خلق صراعا بين هؤلاء الفلاحين و رموز النظام الإقطاعي لا تنطبق عليه نظرية "الصراع الطبقي" التي أفرزتها الثورة الصناعية لأنه كان صراعا

ضد نظام قانوني و اجتماعي مفروض عليهم وراثيا ، لذلك كان في اعتقادي محرك الثورات التي قام بها الفلاحون هو التحرر من قيود هذا النظام و القضاء على الامتيازات التي كان يكفلها للملاك أكثر منه تحسين ظروف عملهم ، و هو الهدف الذي سعت النقابات العمالية الأولى لتحقيقه ، و الذي كان في نفس الوقت سببا من أسباب ظهورها .

2 - فكرة تولد من رحم المعاناة :

إن هناك إجماعا بين المؤرخين و الباحثين في علم الاجتماع و الاقتصاد على ربط نشأة الظاهرة النقابية العمالية بقيام الثورة الصناعية التي قامت بأوروبا في أواخر القرن 18م بانجلترا ، و التي جاءت بسلسلة من التغيرات التي مست وسائل الإنتاج أين نقلت الاقتصاد الأوروبي من الحالة التقليدية الضعيفة التي تعتمد على الزراعة ، إلى الحالة المتقدمة و المتطورة التي تعتمد على الصناعة و الاستخدام المكثف للمكننة حتى غدت "الماكينة" رمزا لهذه الثورة و حتى لهذا العصر من تاريخ أوروبا الحديث و المعاصر (عصر الآلة) .

لم تتوقف إفرازات الثورة الصناعية في تغيير وسائل الإنتاج من وسائل بدائية إلى وسائل متطورة و إنما تجاوزتها إلى تحطيم البنى الاقتصادية و الاجتماعية القديمة ، الأمر الذي انجر عنه بالإضافة إلى تغيير أنظمة الإنتاج و طرقه تغير أيضا في العلاقات الاجتماعية و الاقتصادية و حتى السلوكية ، و مهد و هيا في نفس الوقت الظروف لظهور حركات اجتماعية جديدة مثلت بداية توجه المجتمعات الأوروبية للهيكلة لاسيما في المجال الصناعي حتى تتلاءم و تتكيف مع هذا التحول الذي مس بعمق الوضع الاجتماعي و الاقتصادي لهذه الشعوب ، خاصة عندما أدى ازدياد المعامل أضعافا مضاعفة إلى تضخم طبقات العمال لاسيما في المدن حتى باتت جيوشا على حد تعبير المؤرخ الكندي جفري برون تهدد الدول البورجوازية⁵ .

إن اختراع الآلة و الاعتماد عليها كأداة للإنتاج لم تؤد فقط إلى تطور هذا الأخير كما و نوعا ، و إنما أوجدت نظاما صناعيا جديدا أفرز علاقات عمل جديدة

أثرت على البناء الاجتماعي للمجتمعات الأوروبية التي انقسمت إلى طبقتين اجتماعيتين (أرباب العمل الأغنياء ، الطبقة العاملة الفقيرة) مختلفتين و متصارعتين لا تجمع بينهما سوى علاقات العمل داخل المصنع⁶ ، فيما تفرقهما الكثير من المعطيات سواء في ظروف الحياة أو خصائص كل طبقة كالمستوى المعيشي ، المكانة و الأصول الاجتماعية ، ظروف العمل ، طبيعته ، المؤهلات ، نمط الحياة ...

إن الطبيعة الأولى للفروق بين هاتين الطبقتين اللتين أفرزتهما الثورة الصناعية أخذت الصبغة الاقتصادية في الصراع بينهما بدل الصبغة القانونية- الاجتماعية التي كانت في السابق بين الفلاحين و النبلاء على الرغم من أوجه الشبه الكثيرة بين أسباب الصراع في المرحلتين ، غير أن الذي ميّز الصراع الجديد الذي أفرزته هذه الثورة هو الجشع و الاستغلال البشع الذي طبع أرباب العمل الذين سعوا إلى تحصيل الثروة مهما كان الثمن دون مراعاة لحقوق العمال الذين كان يقع على عاتقهم عبئ تحصيل هذه الثروة ، مما أعطى تلك الصورة الفجة عن الرأسمالية كنظام جديد نفرت العمال و جعلتهم يتوجسون خيفة منه بل و يرونه خطرا يجب التصدي له و القضاء عليه .

و مما زاد في تأجيج هذا الصراع هو ظهور مبدأ المساواة الذي نادى به الاشتراكية التي أعطت حسب أنصارها تفسيراً علمياً عميقاً لهذا الصراع الذي جاء حسماً كرد فعل طبيعي للفروق الكبيرة بين هاتين الطبقتين⁷ . و تجدر الإشارة هنا أيضاً إلى أن تطور الثورة الصناعية أدى إلى تراكم رؤوس الأموال و تركّز الثروة في يد مجموعة صغيرة العدد مكنها من الوصول و التأثير في السلطة سواء السياسية أو القضائية أو التشريعية ، فأصدرت و كيفت قوانين و قواعد العمل بما يتناسب و مصالحها دون أي اعتبار لحقوق و مصالح العمال أو على حسابهم ، الأمر الذي مكنها من فرض شروط قاسية و تعسفية على العمال الذين كانوا يعانون من ظروف العمل في المصانع لساعات طويلة تزيد عن 16 ساعة في اليوم مقابل أجور زهيدة ،

بالإضافة إلى استغلال بشع لزيد العاملة النسوية و الأطفال ، انعدام أي ضمان اجتماعي من الأمراض و الأخطار المهنية و حوادث العمل و العجز ، و غياب شبه تام للعطل و أيام الراحة ...⁸.

هناك من الباحثين من توسع كثيرا في شرح طبيعة العلاقة التي أفرزتها الثورة الصناعية بين طبقة العمال و أرباب العمل ، و كيف كانت سببا في نشأة النقابات مثل بيار لاروك الذي رأى بأن منشأ الصراع بين هاتين الطبقتين لا يحتاج بالضرورة إلى وجود خلل في توزيع الثروة و سيادة نظام سياسي أو اقتصادي ظالم ، و أورد عاملا سيكولوجيا مرتبطا بالشعور "بالتبعية" و الشعور "بالأمن" ، ذلك أن العامل مرتبط بعقد عمل يربطه بصاحب العمل ينفذ بموجبه أوامر هذا الأخير كشرط للحصول على أجر ، فالعلاقة التي تربط العامل بصاحب العمل و التي تحمل صفة الإلزام تجعل حياة العامل و بقاءه مرتبطا بشكل كبير بعمله الذي هو رهن صاحب العمل باعتباره يعيش من أجرة عمله ، هذه الحالة النفسية تجعل العامل منجذب طبيعيا إلى المجموعة التي تعيش مثله في نفس الحالة ، و التي يشعر بالأمان و الراحة بالانتماء إليها لأنها تقاسمه نفس الهموم و تشاركه في الطموح ، و يزداد تمسك العامل بهذه المجموعة (الطبقة العاملة) إذا شعر بقدرته الأخيرة على حمايته و الدفاع عنه .

و يرى بيار لاروك أيضا بأن الشعور "بالتبعية" (الدونية) و "الأمن" يمثلان عقد نقص عند الطبقة العاملة ، لكنهما يوجدان نوع من التعويض عند هذه الطبقة يتجلى بظهور التضامن لأنهما يخلقان أوضاعا مشتركة بين العمال تتحول إلى روابط متينة تجمع هؤلاء العمال الذين يدركون أن مصيرا مشتركا ينتظرهم⁹.

إن تعدد الإفرزات السلبية للثورة الصناعية على الطبقة العاملة المهضومة الحقوق تولّد عنها شعور عند العمال بضرورة التضامن و التعاون و التكاتف للدفاع عن حقوقهم و تحقيق مصالحهم - و من هنا يتبين جليا بأن النقابة العمالية كظاهرة هي وليدة الشعور بالظلم قبل أن تكون وليدة مصالح تسعى إلى تحقيقها - دفع هذا

الشعور العمال إلى التفكير في إقامة هياكل و امتلاك آليات فاعلة للدفاع عنهم ، و مما أعانهم على هذا توسع النشاط الصناعي الذي أدى إلى تزايد الطلب على اليد العاملة¹⁰ و في نفس الوقت زاد من شدة قبضة أرباب العمل ، مما دفع بالعمال للعمل من أجل إقامة جمعيات دائمة تحميهم و تدافع عنهم¹¹ ، تكون أداة للتعبير و العمل و النضال ضد الطبقة التي كانوا يحملونها مسؤولية الوضع البائس الذي كانوا يعيشون فيه ، و الفروق الصارخة التي كانت تفصل بينهم و بين أرباب العمل .

3- المحاولات العمالية الأولى بين الظرفية و الفوضوية :

يمكن أن نطلق على ما سبق ذكره بخصوص نشأة الظاهرة النقابية العمالية "مرحلة المخاض" التي اختمرت فيها فكرة إنشاء نقابة عمالية عند العمال الذين ترسخت عندهم هذه الفكرة قبل الوصول إلى المرحلة الأخيرة التي كللت فيها جهودهم بتأسيس أول نقابة عمالية منظمة و افتكاك الاعتراف بها من أرباب العمل و الحكومات ، غير أن ما يلاحظ على المحاولات الأولى في هذا الصدد هو اتسامها بالظرفية بحيث كان يزول التضامن بين العمال بزوال مبرراته و أسبابه ، و في أحيان أخرى كانت تتسم هذه المحاولات بالفوضوية .

يذكر جورج سيرياكس و روبرت أوكشوت بأن حالة الألم و الأسى التي كان يعيشها العمال جراء عدم تماشي الأجور التي كانوا يتلقونها مع نظام حياتهم و احتياجاتهم جعلتهم أكثر استعدادا و تحمسا للإضراب ، لدرجة يصف فيها المؤلفان عمال الشحن بانجلترا بأنه كان يكفي على مثير الشغب أن يسير على الشاطئ و ينادي "الكل يخرج" ، حتى يلقي العمال بآلاتهم و يخرجوا للإضراب¹² .

إن هذا المثال - و الأمثلة التي سنوردها فيما بعد- يؤكد بأن نشأة النقابة أو بداية ممارسة العمل النقابي للعمال كان الولاء فيها مبني على العاطفة و الاندفاع أكثر منه على التنظيم أو الإيديولوجية ، كما لم يكن وليد لحظة قيام الثورة الصناعية و إنما احتاج وعي العمال إلى وقت حتى نضج . و هناك عامل آخر كان له بعدين أحدهما ايجابي و الثاني سلبي على مسار نضال العمال في البداية نحو تكوين

نقابات خاصة بهم تدافع عن حقوقهم ، و هو معارضة أرباب العمل و الحكومات لهذا المسعى العمالي بحيث تعرض العمال لمختلف ألوان القهر و صنوف الاضطهاد ، لاسيما بعد تعاضد أرباب العمل و الحكومات للتصدي لهذه التنظيمات الجديدة التي كانوا يرون فيها تهديدا مباشرا و خطيرا على الوضع الذي كان قائما لصالحهم مما عطل و أخر قيام مشروعهم ، و في المقابل زاد العمال حرصا و تصميمًا على المضي قدما في هذا المشروع .

من بين الصور التي جسدت معارضة أرباب العمل و الحكومات لهذه التنظيمات الجديدة هو إصدار مجموعة من القوانين و التشريعات التي تمنع العمال من حق التجمع مثل قانون Le Chapelier في 14 جوان 1791 بفرنسا الذي حرم كل تجمع مهني بأي شكل كان ، و تجدر الإشارة إلى أن هذه المعارضة كان لها خلفية تاريخية ترجع للعصور الوسطى عندما حرمت أوامر Villers-Cotterêts الصادرة في 1593 و قانون "ميشو" عام 1629 على أصحاب العمل و خدمهم أن يؤسسوا الطوائف أو الجمعيات مهما كان حجمها و لأي سبب كان بدعوى أن حرية الأفراد من حرية الجماعة ، ثم صدر ببريطانيا قانون سنة 1799¹³ و قانون 1800 الذي يمنع كل تجمع بل حتى كل اتفاق من شأنه المطالبة بتحسين ظروف العمل ، و يعتبره مؤامرة على حرية العمل و الصناعة و التجارة ما يسمح للقوة العمومية بالتدخل لقمعه و معاقبته¹⁴ .

لقد استمرت هذه القوانين إلى غاية 1844 بانجلترا ، و انتظرت فرنسا إلى غاية 1864 تاريخ صدور القانون الإمبراطوري الذي أجاز التكتلات العمالية ، أين كان يحكم على مخالفين هذه القوانين في بريطانيا بالترحيل إلى أستراليا التي كانت آنذاك منفى و سجن للمجرمين ، و عرفت كل من هولندا و بلجيكا و الدانمارك في تلك الفترة قوانين مشابهة تمنع و تعاقب كل تجمع من شأنه الإخلال بحرية العمل وفق التشريعات السارية .

لقد دفعت هذه القوانين المقيدة للحريات والمحرمة للجمعيات والتنظيمات العمالية إلى تحول العمال للعمل السري ، و إلى ممارسة العنف حيث ظهرت موجة من الاضطرابات و الثورات العمالية من أشهرها أحداث ميدلاند بمدينة ليون (القيام بعصيان و تخريب للألات) سنة 1811 ، و أحداث Croix-Rousse ببريطانيا سنة 1831 ، كما جاءت هذه الأحداث تعبيراً عن رفض العمال محاولة تطبيق الرأسمالية بشكلها الفج الذي يحاول إزالة و إقصاء كل ما يحول دون تحقيق الربح (الثروة) لأرباب العمل دون أي اعتبار لظروف العمال¹⁵ ، لتجبر في الأخير هذه الأحداث العنيفة أرباب العمل و الحكومات إلى الرضوخ ، و تشريع قوانين تسمح بإنشاء هذه الجمعيات العمالية .

و تجدر الإشارة إلى أن ظهور التنظيمات النقابية العمالية لم يأت فقط بسبب رد فعل العمال العنيف على سياسة التضييق التي عانوا منها ، و إنما أيضا لظهور معطيات فكرية و سياسية جديدة هيأت الظروف لها ، منها ظهور الأفكار الاشتراكية و الشيوعية و انتشارها في أوساط العمال و دعوتها عمال العالم للاتحاد ، و التي تأثر بها حتى بعض الساسة ، و خوفا من تداعيات و تعاظم انتشارها اضطرت الحكومات في محاولة منها لاحتواء حركات العمال إلى تنظيمهم في أطر و هياكل قانونية و نظامية حتى لا تتحول إلى حركات متطرفة يصعب التعامل معها و السيطرة عليها .

و حتى على الصعيد السياسي كان السماح لكل فئات الشعب بالاقتراع أن جعل العمال الذين كانوا يمثلون فئة اجتماعية معتبرة العدد لها وزنها السياسي الكبير و الذي لم يكن بالإمكان تجاهله ، مما دفع بالساسة و قادة الأحزاب للعمل و السعي إلى استمالتهم و استرضائهم ببرامج و سياسات تخدم مصالحهم و تدافع عن حقوقهم بعدما بات بإمكان العمال إيصال من يريدون إلى سدة الحكم أو البرلمان ، و قد حصل هذا مع انجلترا و دول أخرى عديدة أين وصل إلى سدة الحكم و التشريع الساسة المتعاطفين مع العمال كمرحلة أولى قبل وصول العمال أنفسهم إلى دوائر

صنع القرار ، ما نقل الصراع بين العمال و مستغليهم من المصانع الى أروقة السياسة

16

لقد كان لهذا التحول عظيم الأثر على الحركة العمالية بعدما أدى إلى تغيير النظرة للعمال ، و تبعاً لذلك بدأت هذه الطبقة تحصد الاعترافات بالجملة من طرف دولها التي ضمنت دساتيرها ما يكفل حقوق العمال ، و تحصينهم بقوانين تحميهم من جشع أرباب العمل ، مثل بريطانيا و فرنسا سنة 1864 و 1884 ... ، و بمجرد نهاية الحرب العالمية الأولى كان مبدأ حرية العمل النقابي معترفاً به في جميع الدول المصنعة و الدول الاشتراكية ¹⁷ .

إن استعراض المسار التاريخي لنشأة الظاهرة النقابية العمالية في أوروبا يسمح بالوقوف على طول المدة التي احتاجها العمال لكي يثبتوا وجودهم و يهيكلوا أنفسهم في إطار شرعي و منظم ، دفعوا من أجله أثماناً باهضة كانت بمثابة ضريبة و صك اقتطعوا به حقا أصيلاً من حقوقهم دعم من مكانة هذه الطبقة و أعطاهم وزناً يليق بحجمها الكبير و دورها الفاعل في المجتمع .

4 - تأسيس النقابات الأولى :

حتى تكتمل صورة نشأة الظاهرة العمالية و كل ما صاحبها من توضيحات و جهود و محاولات بشكل أوضح نورد بشكل مختصر بعض النماذج التي نجح فيها العمال في إحداث هذه النقلة النوعية في نضال لتنظيمات النقابية العمالية بشكل خاص و الحركة العمالية في العالم بشكل عام ، و لعل أبرز هذه النماذج :

4 - 1 - بريطانيا : تعتبر بريطانيا مهد النقابات العمالية في العالم باعتبارها مهد الثورة الصناعية ، أين كان العمال الانجليز أول من عانى من مساوئ الانقلاب الصناعي و أول من انعتق من القيود و القهر الذي فرضته هذه الثورة . غير أن أهم ما ميز المرحلة الأولى في تأسيس النقابات العمالية البريطانية هو أن رد فعل العمال الانجليز إزاء الاستغلال الذي كانوا يعانون منه لم يظهر فيها بشكل سريع و منظم بسبب غياب وعي بالانتماء إلى طبقة واحدة ¹⁸ ، الأمر الذي حال دون توحيدهم ضد

تلك الظروف القاسية لتتأخر تبعا لذلك المحاولات الأولى إلى غاية 1818 عندما قام جون غاست Jhon Gast عامل الخشب بإنشاء تنظيم سماه "هرقل" يجمع كل عمال الخشب ، إلا أن محاولته باءت بالفشل بعد إجهاض مبادرته سنة 1829 التي جاءت في ظل وسط معادي مدعوم بترسانة من القوانين المعارضة لمثل هذه التنظيمات و المبادرات ، ليتحرك بعدها عمال الغزل و النسيج بعد تعالي صيحات عمال هذا القطاع بضرورة إنشاء تنظيمات عمالية فجاءت محاولة روبرت أوبون Robert Ouboun¹⁹ سنة 1824 الذي تمكن من إنشاء أول أكبر نقابة انجليزية موحدة عام 1833²⁰ لاقت نجاحا كبيرا و سريعا (ضم الاتحاد الذي أقامه خلال أسابيع فقط 500 ألف منتسب بينهم الكثير من النساء و المزارعين) ، لكن لم يكتب لها الاستمرار طويلا .

على الرغم من فشل هذه المحاولات في تحقيق أهدافها البعيدة إلا أنها أسهمت في هيكلة العمال و تنظيمهم ، بحيث لم تمض فترة طويلة حتى أصبحت النقابات الانجليزية تضم حوالي 800 ألف منخرط عام 1840²¹ ، غير أن ما يعاب عليها هي أنها كانت في معظمها نقابات فئوية (نخبوية) تضم الأرستقراطية العمالية لذلك وجهت لها عدة انتقادات بسبب هذا الشكل الذي ظهرت عليه . ظل الوضع على ما هو عليه إلى غاية 1860 عندما لجأت مجموعات عمالية إلى تشكيل نقاباتها دون اشتراط صفة التأهيل لتكسر بذلك الاحتكار الذي كان سمة النقابات الأولى ، ثم أعقب ذلك قيام نقابات خاصة مثل نقابة المعلمين سنة 1860 و نقابات عمال البريد سنة 1881

بعد تبلور النقابات العمالية من حيث الشكل بدأ الاهتمام ينصب على بلورة نشاط (مضمون) هذه النقابات و تحسين أدائها ، هذا التحول الذي يرى الكثير بأنه جاء نتيجة التأثير بالأفكار الاشتراكية التي بلغت حدا من النضج جعلها قادرة على طرح تصور جديد كامل و منظم لحماية الحياة الاجتماعية في الفترة 1880-1890 ، مثل فكرة وقاية العمال من العجز و الشيخوخة و حوادث العمل ، فبلور العمال

الانجليز نضالهم في هذه الفترة للحصول على تشريعات تضمن لهم التكفل بالأعباء عند العجز و المرض و الوفاة خاصة لدى عمال المناجم الذين أقاموا تنظيما نقابيا و صل عدد المنخرطين فيه عام 1888 حوالي 36 ألف عامل .

لقد ازدادت قوة هذه النقابات بعد توجيهها نحو التوحد أين ظهرت ما تعرف بـ "الاتحادات المهنية"²² بحيث بدؤوا يطالبون بتخفيض ساعات العمل إلى 12 ساعة في اليوم ثم إلى 08 ساعات و قاموا من أجل ذلك بعدة إضرابات ، غير أن العمال دفعوا ضريبة هذا المكسب تضحيات كبيرة أشهرها مجزرة Paterlou في 16 أوت 1919 .

4 – 2 - فرنسا : مرت تقريبا النقابات العمالية الفرنسية بنفس المراحل التاريخية التي مرت بها نظيرتها البريطانية ، غير أن شكلها الأول كان عبارة عن تعاونيات مقتصرة على الأجراء و هدفها الأجور فقط ، و كانت تتشكل أساسا من عمال البناء . دامت هذه التعاونيات من 1791 إلى 1840 لتحل محلها منذ 1860 ما يعرف "بالغرف النقابية" التي كان يراد منها أن تكون نقابة تمثل العمال و أرباب العمل مناصفة ، إلا أن احتكار أرباب العمل لها حال دون نجاحها .

لكن في المقابل تجدر الإشارة الى أن أهم ما ميّز النقابات الفرنسية هو طابعها التعددي فضلا عن ارتباطها بالأحزاب السياسية لاسيما الاشتراكية و الشيوعية منها بالإضافة إلى تأخر ظهورها مقارنة بالنقابات الانجليزية ، و من أشهر هذه النقابات "الكونفدرالية العامة للشغل" CGT التي تأسست في مدينة ليموج سنة 1895 م التي تعتبر أول و أكبر مركزية نقابية عمالية ظهرت في فرنسا بعد رفع الحظر عن تأسيس الجمعيات العمالية الذي نص عليه قانون 1884م ، و "الكونفدرالية الفرنسية للعمال المسحيين" CFTC التي تأسست سنة 1919م ، و نقابة "القوة العاملة" FO التي تأسست سنة 1948 بعدما انشقت عن CGT²³ .

4 – 3 - إفريقيا السوداء : لعل أهم ما يمكن ملاحظته حول نشأة الظاهرة النقابية العمالية في إفريقيا السوداء بالإضافة إلى تأخر وصولها الى هذه القارة ، فإنها تختلف

في شكل ظهورها عن نظيرتها الأوروبية لاختلاف السياق التاريخي الذي ظهرت فيه ، فإذا كانت النقابة الأوروبية قد ظهرت نتيجة الثورة الصناعية فإن النقابات الإفريقية جاءت نتيجة ظروف سياسية خاصة كان عنوانها الاستعمار . أما عن أسباب تأخر العمل النقابي بشكل عام و العمالي بشكل خاص في إفريقيا فانه راجع لعدة أسباب و معطيات أهمها غياب القاعدة الصناعية و قلة العمال الأجراء و خاصة الدائمين منهم بالإضافة إلى تدني المستوى العلمي ... ، و فوق كل هذه الأسباب الأنظمة الاستعمارية التي عملت جاهدة على حرمان الأفارقة من التعرف أو امتلاك هذا السلاح ²⁴ ، هذه الأسباب مجتمعة هي التي تفسر لنا لماذا كان رواد العمل النقابي في معظمهم شبان أفارقة تكونوا أو درسوا في أوروبا من أمثال جومو كينيياتا ، أحمد سيكو توري ، و نكروما ... ، أو عمال هاجروا إلى أوروبا لاسيما في الحرب العالمية الأولى التي سمحت لهم بالإطلاع على أوضاع نظرائهم الأوروبيين و التنظيمات أو الآليات التي كان يعتمدون عليها في نضالهم لنيل حقوقهم و الدفاع عن مصالحهم المادية و المعنوية ، فعادوا إلى بلدانهم متأثرين بما شاهدوا من فوارق كبيرة في ظروف العمل ، الحريات و الحقوق ... ، و لعل أهم شيء اكتشفه الأفارقة هناك هو ذلك الدور الذي يمكن أن تلعبه النقابة باعتبارها ممثل للعمال .

يضاف إلى كل هذا تواجد بعض الفروع النقابية للمركزيات الأوروبية التي أقامها المستوطنون بحيث كان لها دور كبير من حيث لا تشعر في إذكاء حماس الأفارقة و تنظيمهم للاستفادة من هذا السلاح لكسب صراعاتهم مع أرباب العمل و الاستعمار ، و قد زادت أهمية دور هذه النقابات بعد تسابقها من أجل استقطاب الأفارقة للانخراط في صفوفها ، كما سمحت لهم تحت ظروف معينة من تولي مناصب قيادية فيها الأمر الذي جعل هذه الفروع النقابية الأوروبية بمثابة مدارس نقابية تعلم فيها الأفارقة النضال العمالي بعدما أتاحت للبعض منهم تكويننا نظريا و ميدانيا ²⁵ . كما تجدر الإشارة أيضا إلى أن أهمية العمل النقابي قد ازدادت أيضا بعد تصاعد الوعي الوطني و تطور الحركات السياسية الإفريقية المناهضة للاستعمار ،

و التي اهتمت في نشاطاتها بهذا الشكل من النضال و حاولت الاستفادة منه في كفاحها من خلال إشراك العمال بشكل منظم و مهيكل في مشروعها التحرري .

إن البدايات الأولى لظهور النقابات الإفريقية كان بالمستعمرات البريطانية بعد اعتراف الحكومة الانجليزية رسميا بحقوقهم في العمل النقابي سنة 1930 ، غير أن العقبات و القيود و الرقابة التي كانت مفروضة من هذه الحكومة قد أخر مشروع قيام نقابات افريقية وطنية عشرات السنين ، أما بالنسبة للمستعمرات الفرنسية فانه على الرغم من الحريات التي يكفلها قانون 1884 إلا أنه لم يدخل إفريقيا إلى غاية 1920 و اقتصر على الأوروبيين فقط ، في حين انتظر الأفارقة إلى غاية 1937 عند وصول الجبهة الشعبية للحكم التي أصدرت مرسوما في مارس 1937 يسمح للأفارقة بتنظيم نقاباتهم شرط الحصول على الشهادة الابتدائية ، و على الرغم من محاولة النقابات الفرنسية ربط النقابات الإفريقية بها إلا أنها فشلت في ذلك بعد إعلان الأخيرة انفصالها رسميا في دكار سنة 1956 رغم تهديدات الكونفدرالية العامة للشغل و إغراءات الحكومة الفرنسية ، لتفقد CGT 50 تنظيما نقابيا من أصل 67 تنظيم ، و بحلول عام 1957 تمكن الأفارقة من تأسيس "الاتحاد العام لعمال إفريقيا السوداء" UGTAN²⁶ الذي أكدوا به انفصالهم عن النقابات الأوروبية .

خاتمة :

إن تتبع المسار التاريخي لظهور النقابة العمالية و تطورها في العالم يسمح بالوقوف على عدة محطات هامة شكلت إرهاصات هيأت الظروف المناسبة لميلاد هذه الظاهرة كمرحلة أولى ، لتدخل بعدها في تجارب عسيرة من النضال الاجتماعي مثلت تجارب عصيبة مرت بها هذه الشريحة الاجتماعية الحية و دفعت فيها أثمنا باهضة ، لكن في المقابل استفادت منها في تطوير حراكها و صقل خبرتها التي مكنتها من بلوغ هذا الشكل المنظم و المتكامل التي هي عليه اليوم ، و كغيرها من الظواهر الاجتماعية الناجحة فإنها لم تأت عفوا الخاطر و لا بالصدفة أو بالمجانية ، و إنما جاءت كنتيجة و ثمرة لجهود و تضحيات كبيرة دفعها الحركة العمالية التي عانت

الولايات و تجرعت المرات من أعداء تطور الحركة العمالية لاسيما في أوروبا التي تعتبر المهد الأول للنقابة الحديثة ، باعتبار أن هذه القارة شهدت أكبر التحولات الاقتصادية والاجتماعية وحتى السياسية في العصر الحديث والمعاصر .

ان ظهور النقابات العمالية و تطورها من حيث الشكل و المضمون جعل منها أداة فعالة و سلاح حاد في يد الطبقة العاملة التي ظلت لفترة طويلة تعاني من الاستغلال الفاحش الممارس عليها من أرباب العمل خاصة بعد تطور و توسع الثورة الصناعية و نمو الرأسمالية ، ذلك ان هذه المنظمات العمالية قد استطاعت أن تحقق عدة مكاسب للعمال بعدما نجحت في جمع و تأطير الأيدي العاملة بالشكل الذي جعلها كتلة لها وزنها ليس فقط في عالم الشغل أو سوق العمل ، و انما حتى في مجالات الحياة الأخرى لاسيما السياسية منها ، كما استطاعت أن تجعل من هذه الطبقة شريكا اساسيا و فاعلا في حياة المجتمعات و ليس مجرد سلعة أو شريحة تباع جهدا العضلي لتبقى على قيد الحياة .

الهوامش:

¹ أولى هذه التحولات هي قيام النهضة الأوروبية بايطاليا في منتصف القرن 14 م التي تعتبر القاعدة التي قامت عليها بقية التحولات الأخرى الكبرى ، بداية من الغزوات الجغرافية منذ نهاية القرن 15 م ثم الثورات السياسية ابتداء من القرن 17 م و الثورة الصناعية مع نهاية القرن 18 م ، و وصولا إلى الحركة الاستعمارية التي بلغت أوجها في القرنين 19 و 20 م . و تجدر الإشارة إلى أن هذه التحولات كانت مرتبطة ببعضها البعض ارتباطا وثيقا سارت كلها قدما بأوروبا نحو الحداثة و الازدهار و قطعت بها أشواطا كبيرة في التقدم و الرقي .

² كانت تتكون من كبار التجار ، أول ما ظهرت في أوروبا بايطاليا التي شهدت في العصر الروماني نظام مشابه قضت عليه غزوات الجرمان ، بحلول القرن 13 م بلغت هذه التنظيمات حدا من النضوج مكّنها من التحول إلى هيئات دائمة تعمل على الدفاع عن مصالحها بنفسها ، بمرور الوقت تعدى هذا النظام إلى أرباب الحرف الذين أسسوا نقابات خاصة بهم للمزيد انظر : عبد العظيم رمضان : تاريخ أوروبا و العالم في العصر الحديث ، ج 1 ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، مصر ، 1997 ، ص-ص 19-21.

³ يرى بيار لاروك بأن نشأة الظاهرة النقابية العمالية قد ارتبطت بنشأة الطبقات في المجتمع كإفراز للثورة الصناعية . أنظر : بيار لاروك : الطبقات الاجتماعية ، جوزيف عبود كبه ، ط 1 ، دار المنشورات عويدات ، لبنان

- ، 1983 ، ص 48. و نفس الفكرة يذهب إليها جورج سيريلاكس و روبرت أوكشوت في كتابهما "المساومون أو التخطيط النقابي الحديث في بريطانيا". و أيضا : جفري برون : الحضارة الأوروبية في القرن التاسع عشر 1815-1914 ، ترجمة عبلة حجاب ، منشورات المكتبة الأهلية ، بيروت ، 1963 ، ص 149.
- ⁴ إن الطبقة العاملة كطبقة اجتماعية كانت موجودة و معترف بها في إنجلترا على سبيل المثال و فرنسا ، و قد تأكد حضورها عند قيام الثورة البورجوازية في إنجلترا من 1642-1659 ، و الثورة البورجوازية في فرنسا من 1749-1794 ، عندما تحالفت القوى الثورية و البورجوازية معها ضد الإقطاعيين .
- ⁵ جفري برون : نفسه ، ص 149.
- ⁶ بهية أوقنون : تطور الحركة النقابية في الجزائر من الأحادية إلى التعددية ، مذكرة ماجستير في فرع التنظيم السياسي و الإداري ، قسم العلوم السياسية و الإعلام ، جامعة الجزائر 2003-2004 ، ص 9.
- ⁷ و في نظري أيضا فإن ميلاد التنظيمات الاشتراكية الراديكالية مثل الشيوعية هي رد فعل طبيعي لتلك الصورة المتوحشة التي كثيرا ما لازمت تطبيقات النظام الرأسمالي من طرف أرباب العمل الجشعين فجاء رد الفعل من جنس الفعل .
- ⁸ سلاطنية لخضر : الحركة النقابية الإفريقية و ظروف ممارسة الحق النقابي ، رسالة ماجستير ، كلية الحقوق ، جامعة الجزائر ، 2007-2008 ، ص 11 . (نسخة الترونية) .
- ⁹ بيار لاروك : نفسه ، ص-ص 56-58.
- ¹⁰ يمكن اعتبار هذا الأمر أحد الانعكاسات الايجابية الكبيرة للثورة الصناعية على الطبقة العاملة ، ذلك أن توسع الانتاج و اتساع الاستهلاك و اشتداد المنافسة بين المصانع قد أدى الى نمو هذه الأخيرة بشكل مطرد ، و ظهور المعامل الأكبر حجما التي تتطلب يد عاملة أكثر ، الأمر الذي جعل هذه المعامل تتحول الى أماكن لجمع حشود كبيرة من العمال ، و على الرغم من أن هذا التحول أو التوجه كان يساعد على مضاعفة الانتاج و تخفيض التكاليف إلا أنه ترك في الوقت ذاته آثارا أخرى لم تكن لتدور في خلد أرباب العمل بعدما أخذ البون يميل نحو الاتساع بين ادارة المعمل و العمال ، كما أتاح هذا الوضع للعمال القدرة على التكتل تكتلا أنجع للمساومة الجماعية بعدما أخذت أعدادهم في الارتفاع . أنظر : جفري برون : نفسه ، ص 159.
- ¹¹ سلاطنية لخضر : نفسه ، ص 11.
- ¹² جورج سريلاكس و روبرت أوكشوت : المساومون أو التخطيط النقابي الحديث في بريطانيا ، ترجمة تيسير فهي ، الدار القومية للطباعة ، مصر ، دت ، ص 12.
- ¹³ جاء هذا القانون بعد حالة الاضطراب التي عرفها عمال النسيج التي أفلقت السلطات العامة فأقر البرلمان هذا القانون و قام الملك بنشر نصه بعد 20 يوم من الأحداث . أنظر : جورج لوفران : الحركة النقابية في العالم ، ترجمة ايلى ميري و علي موخالد ، ط 2 ، منشورات عويدات ، بيروت-باريس ، 1980 ، ص 11.
- ¹⁴ سلاطنية لخضر : نفسه ، ص 12.
- ¹⁵ بهية أوقنون : نفسه ، ص 9.
- ¹⁶ جفري برون : نفسه ، ص 161.

- ¹⁷ سلاطينة لخضر : نفسه ، ص، ص13، 12.
- ¹⁸ وهذا عكس الحرفيين (الخياطين) الذين بادروا في الدعوة الى انشاء جمعية تحميمهم سنة 1720 م عندما تجرؤوا لأول مرة في التاريخ على رفع مظالمهم الى البرلمان ، و قاموا بجمع التبرعات التي تساعدهم في الدفاع عن أنفسهم في حال تعرضوا للمضايقات . أنظر : جورج لوفران : نفسه ، ص 9.
- ¹⁹ روبرت أوبون : (1771-1858) إصلاحي اشتراكي بريطاني صاحب مصنع للنسيج بـ New Lanark قام بإصلاح أوضاع العمال عن طريق برنامج اعتمد على رؤية إنسانية اتجاه العمل ، عرف نجاحا كبيرا . لقد عرف عن روبرت أوبون اهتمامه الكبير بقضايا العمال في كتاباته الصحفية التي ذكر فيها بأن طموحه أكبر و أبعد من إنشاء نقابة ، بل إلى تغيير الأوضاع الاجتماعية و تغيير فكرة المنافسة بفكرة التعاون كطريقة للإنتاج ، تمكن من إنشاء أكثر من 300 تعاونية ، إلا أن عدم نضج العمال حال دون استمرار نجاح هذه التجربة بسبب سيادة الإضرابات الفوضوية و استعجال العمال الحصول على المكاسب بدل العمل على تغيير و إصلاح الأوضاع و المجتمع ككل ... للمزيد أنظر : شطبي حنان : المرجع السابق ، ص 19.
- ²⁰ جورج لوفران : المرجع السابق ، ص 12.
- ²¹ ليصل عددهم قبل انتهاء القرن حوالي مليونين منتسب . جفري برون : المرجع السابق ، ص 159.
- ²² عبد المنعم الجبلي : تاريخ الحركة العمالية و النقابية في العالم ، مكتبة النهضة ، بيروت ، د ت ، ص 23.
- ²³ للتوسع أكثر حول هذه النقابات الفرنسية أنظر : خيثر عزيز : العمل النقابي في الجزائر و دوره في خدمة القضية الوطنية الاتحاد العام للعمال الجزائريين أنموذجا 1956-1962 ، أطروحة دكتوراه في التاريخ الحديث و المعاصر ، المدرسة العليا للأساتذة ببوزريعة ، 2016-2017 ، ص 15-27.
- ²⁴ ثامري عمر : التعددية النقابية في الجزائر من الحظر الى التقييد ، أطروحة دكتوراه في الحقوق ، جامعة الجزائر 01 ، 2012-2013 ، ص 281.
- ²⁵ يمكن اسقاط هذه الحقيقة التاريخية على المناضلين النقابيين المغاربة في كل من تونس و الجزائر و المغرب ، لكن في المقابل تجدر الإشارة الى أن مساهمة هذه الفروع النقابية الأوروبية في نشأة الظاهرة النقابية العمالية بهذه الدول قد توقف عند هذا الحد دون أن تتعداه الى بناء الوعي الوطني عندهم ، فضلا عن أن هدف هذه الفروع من نشاطها و نضالها في هذه الدول لم يكن يوما من أجل الدفاع عن حقوق و مصالح العمال الأفارقة بعدما اقتصر على خدمة الأوروبيين . للمزيد أنظر : خيثر عزيز : المرجع السابق ، ص 71، 70.
- ²⁶ سلاطينة لخضر : المرجع السابق ، ص-ص 28-50.